نداء اسلامي

لتحرير المرأة

بقلم الأب لامنس اليسوعي

ظهر في بيروت كتاب جديد اسمه « السفور والحجاب : محاضرات ونظرات مرماها تحرير المرأة ، والتجدّد الاجتماعي في العالم الإسلامي ؛ تأليف الآنسة نظيره زين الدين » وهو يُهدى الى والد المؤلفة ، سعيد بك زين الدين الرئيس الاول لمحكمة الاستئناف في الجمهورية اللبنانية . ونحن اذا اعتبرنا هذه التقدمة الصادرة عن برّ بالوالد بليغ ، وتدبّرنا بإزويّة نصّها الدقيق ، علمنا ان امامنا مؤلفين للكتاب لا مؤلف واحد ، وشعرنا ان « السفور » وليد المحادثات الليلية ، ونتيجة جهود الابنة والوالد الذي احتجب ، بعد انتهاء العمل ، مختفياً وراء من كان عليها كتابة امالية . لأننا ، دون ان نبخس الآنسة نظيرة حقّها ، نرى ان اسلوب المناظرة في الكتاب ، والاستشهاد الكثير بأحكام الشريعة ، مع تلك السهولة في استعمال الفقه والقوانين ، كلّ هذا ينمّ عن تدخل رجل القانون . وكذلك فان الاستشهاد بنثري القرآن ، والاشارات العديدة الى مجاميع الحديث ، ليست من المواضيع التي تحذقها الفتيات على مقاعد المدرسة .

وقد استلمنا ، برفق النسخة التي اهديت الى مجلتنا ، رسالة ترجو بها الآنسة نظيرة من ادارة التحرير ان تبدي رأيها بكل حرّية . فنحن ، مع شكرنا للآنسة ثقتها فينا ، نجتهد في ان لا نطيع تلك الدعوة . لاننا قلنا سابقاً (مشرق آذار من هذه السنة ص:١٣٦) ان المسألة لا تهمّ الا المسلمين ، ولهم وحدهم الحق في ان يفحصوا فوائد الحجاب وأضراره ويعيّنوا مقدار ما ينبغي ان يمنحوه من الحرية لنسائهم . أمّا في ما يخصّنا من ذلك فقد حلّت المسألة ، منذ نحو الفي سنة ، بفضل الانجيل ، وقانون المدنية المسيحية .

على ان تحامينا الدخول في هذا البحث لا يمنعنا من القول ان الكتاب جمّ

الفوائد ، يثير كثيراً من المسائل . واذا استثنينا بعض المراجعات ، ظهرت اكثر البراهين متسلسلة بوضوح ، موفّقة في عرضها ، لاذعة بعض الاحيان . وانها للمرة الاولى التي يظهر فيها في سوريا ، على ما نظن ، درس موضوع السفور بهذا المظهر الجامع (اكثر من ٤٢٠ صفحة) وبهذه السعة في العقل ، تكتبه مؤلفة مُسلمةً ، فتتكلم وتناظر مسلمةً .

ونحن ، دون ان ننكر حقها في ذلك او ننحاز اليها او عنها ، نرى ان قرّاءنا يشكروننا اذا ما اوردنا لهم ملخّص الكتاب ، واشرنا الى اهمّ البراهين التي تستند اليها المؤلفة . فيكون دورنا دور الناقل ليس غير . وهكذا فلا نخشى ان نحتجب وراء الكاتبة ، تاركين لها مجال الكلام ، ناقلين بعض نصوصها .

* * *

يبدأ القسم الاول « بجولات عامة في الحرية ، والحق ، والشرع ، والدين ، والعقل » وليس هو اطرف ما في الكتاب . تعرض فيه مؤلفته ما يستند اليه اعداء السفور من ان المرأة احطّ من الرجل ديناً وعقلاً ، وبما يبرهنون على ذلك من ادلة يتخذونها من الشريعة القرآنية التي تعتبر المرأة نصف رجل في مسائل الشهادة ، والارث ، وتعطي الرجل حقّ تعدّد الزوجات ، والاستبداد بالطلاق متى شاء دون رضاها . ثم تجتهد في دحض تلك الاستنتاجات (الصفحة ٩٠ وما يليها) . تشهد بنصوص عديدة من الحديث . على انه بامكان الاعداء ان يوردوا نصوصاً اخرى من الحديث تعاكس تماماً هذا الرأي . فلمن تميل الحجّة ؟ وباي نصّ تتعلّق الحقيقة ؟

ويأتي القسم الثاني وفيه توسيع الادلة العقلية فيبدأ هكذا : (ص: ١٠٩)

« قلتُ في اول الامر ، بين عدد انصار السفور ، فرأيت ان أهل الحجاب لا يجاوزون عدة ملايين من الاسلام يسكنون المدن ، وان العالم الاسلامي في القرى ، وأكثر من الف وسبعمائة مليون من الامم الاخرى ، كلهم من اهل السفور ، وقد نبذوا الحجاب الذي كانوا انصاره من قبل ورأيت ان الامم التي نبذت الحجاب ، اممٌ راقية في العقل والمادة ، رقياً ليس للامم المتحجبة مثله . فالامم السافرة هي التي اكتشفت بالبحث والتنقيب اسرار الطبيعة ، وسخرت لارادتها العناصر ، كما تعلمون وتشهدون . اما الامم المتحجبة فلم تكتشف سرّاً ، ولم تسخر لارادتها عنصراً ، وانما هي تتغنى بمجد مضى ، وتقاليد لها قدم ، مستميتة بذلك الفناء على الجمود . »

بعد هذه المقابلة ، تؤكد المؤلفة ان الحجاب لم يكن فخراً للرجل بل هو اهانته لانه يجعل كلّ رجل « يحقر امّه ، وابنته ، وزوجته ، واختـه ، بسوء ظنه المستمرّ ، يسد اليهنّ فساد الأخلاق » ويعتبر عن عاجزات عن مقاومة ميول الطبيعة الفاسدة . وهي تستشهد بقول شوقي بك « امير الشعراء » :

« ان السفور كرامةٌ وعفافةٌ لولا وحوش في الرجال ضواري »

ولكن من حسن الحظّ ان الشعراء يستطيعون ان يغيّروا آراءهم كلما عنّ لهم ذلك ، وان لا يتقيّدوا اليوم بما قالوه أمس . وما قولكم بهذه الابيـات لشوقي بك نفسه :

قم حيّ هـذي النيّرات حيّ الحسان العبّرات !
واخفضْ جبينـك هيبةً للخرّد المتخفّرات !
مـر تجـدّد مجدهـا بنـاتها المتجدّدات ،
الناشرات من الجبو ـ ـ ـكأنـه شيح الممات ؛
هـل بينهنّ ، جوامـدًا ، فرقٌ وبين الموميات !

وان الآنسة نظيره تأبى كل الإباء ان تمدّ بين تلك « الموميات » . وهي تعتبر ان الحياة في العالم ، والاجتماع المختلط ، يتمّ التهذيب المـدرسي ، وان الاجتماعات العيلية مراقي العقل والاخلاق . ودون ادنى حياء بشري ، تذكر مثال الراهبات السافرات فتقول :

« لا يجوز لنا ان ندّعي ان نساءنا المتحجّبات بزين الحاضر الخلاب اكثر شرفاً ، واكمل ادباً ، واعفّ نفوساً ، وابعد زيّاً عن التبرّج والفتنة من الراهبات السوافر السلواتي اقتطعن من الرجال ولا قوّام عليهن في هذه الحياة ، كأنما هنّ اللواتي عملن بكتاب الله وسنة رسوله في العلم والتعليم وفي الزيّ اذا خرجن من بيوتهن . وكأنا نحن الآلى خالفوا .

ان كل من تأمل منصفاً بعقل مجرد عن الهوى يرى ما رأيت .

وهل بيننا من لا يثق بهنّ كل الثقة وقد اعترف لهنّ العالم بحسن السجايا فضلاً عن شديد عنايتهنّ بتهذيب الصغار وتثقيف اخلاقهم وانارة عقولهم .

وهل ينكر احد انهنّ مرجع الفقير ، وملجأ العاجز والمريض ، وغوث المنوز واليتيم ؟ أكان سهلاً عليهن ان يفعلن ما يفعلن في سبيل خير البشر لو كنّ في اسر الحجاب يرسفن بقيوده كما يريد سيدي الرجل ان نكون نحن ؟

وهل يرضى الله عزّ وجلّ، وهو العدل كلّه، من ضعفنا وخمولنا ونحن محجبات، ولا يرضى من جليل عمل اولئك ومنّ سوافر، وقد ملأن البشرية بنافع واعمالاً؟

انظروا مساعد العلم التي انبتها، وهي تسير ارضنا كما تسير النجوم السماء. انظروا اليها وقد صيّرتها قوة الحرية والارادة وسمو المدارك وصدق العزيمة، جنات باسقة الاغصان ناضجة الثمار. واسمعوا من وراء جدران الملاجئ دعاء الايتام والموزين الذين رفعتهم يد القضاء الى وهدة البلاء والشقاء، فتلقفتهم ايدي ملائكة البر والعطف البشري تشبع جوعهم، وتكسو عريهم، ناشلة اياهم من تلك الوهدة.

انظروا كل هذا يا سادتي الرجال، وقابلوا بين الفتيين الراهبات السوافر، والنساء المحجبات اللواتي حرمن القوامين عليهن، ترفا هؤلاء وقد عجزن عن كسب قوتهنّ يتراكمن على ابواب المحاكم الشرعية ودوائر التنفيذ منكسرات القلوب ذليلات النفوس يسألن نفقة تقيهنّ قارصة الجوع، وبعضهنّ يشتهي الرغيف، واولئك يعضمن الفقر والبؤس. افلا يخشى الرجل ان تتبذّل المرأة التي لا معين لها اذا عجزت، وقد منعها الحجاب، عن كسب رزقها الحلال؟ (ص: ١٥١-١٥٢)

ولكن اعداء السفور يدّعون ان ترك الحجاب يجرّ الى ترك المنزل، فعدم الاهتمام بتربية الاطفال، ويقود لا محالة الى قلة المواليد. فتجيب الكاتبة «ان عدد نفوس الملل الاسلامية المحجبة في تأخر وتوقف، ونفوس الملل السافرة تتضاعف عدداً في عشرات السنوات.» ثم تلقي نظرة عامّة فتقول:

حين نرى ان مدينتي لندن وبوبورك تبلغ نفوس كل منهما عدداً سبعة ملايين ونيّفاً، وذلك اضاف اضعاف ما كانتا عليه قبل مئة سنة، واضاف ما بقي في سورية ولبنان وفلسطين والعراق من نفوس.

حين نرى المدن الاخرى في العالم السافر تتضاعف مثلها نفوساً حتى ضاقت ارض السفور باهلها على رحبها فانتشروا في الارض مستولين بما خلفت عقولهم من قوة، وبما اعدّوه من عدة، على بلدان الامم المحجبة، او بلدان الامم المتأخرة، وهي التي است الارض فيها واسسة على سكانها الجامدين في مقدار نفوسهم، كما جمدوا على العادات في عقولهم او تأخروا.

حين نرى الحقائق تنصرف دون اعتراض على حكمة الباري، ودون انكار لحكم الاجل، ان نصف الاطفال عندنا يموتون من جهل امهاتهم، وقلما يموت عندهم طفل الا بقدر.

حين نرى ما انجبت تلك الامهات في هذا العصر، عصر العلم والنور، من مخترعي طيارات وسيارات وغوّاصات وتلغرافات وتلفونات سلكيّات ولاسلكيّات، وميكروسكوبات وتلسكوبات. ومن كاشفي ميكروبات، وايونات، وراديوم وانوار واشعات، وغير ذلك من المدهشات المذهلات.

حين نرى كيف انجبت اولئك الامهات السوافر اولئك المخترعين والمخترعات، والمكتشفين والمكتشفات، والمصلحين والمصلحات، والاطباء والطبيبات. ثم تلقي نظرة الى انفسنا والى ما انجبت امهاتنا.

حين نتأمل فنرى ونعرف ، ان لا فرق بيننا وبين ذلك العالم ، إلّا نقاب النساء ، يجب ان نعترف بان الام هناك لم تصل تربية اولادها ، بل أحسنتها وان السر في زيادة عدد النفوس هناك ، ونقصانها هنا ، انما هو حسن تربية الام عندهم وسوء تربيتها عندنا . (ص: ١٦٢-١٦٣)

ثم تنال الآنسة نظيره من جبن الرجال ، والتناقض بين آرائهم واعمالهم (ص : ١٦٥) فاكثرهم يعترفون بمضارّ الحجاب ، ولكنهم لا يجرأون على رفعه خائفين من نقد العامّة . ويزعم غيرهم انه من اللازم قبل السماح بالسفور « تعميم تعليم البنات ، وتهذيب الشباب ، تعليماً وتهذيباً صحيحين ، وبعدئذٍ يحسن تعميم السفور . » (ص : ١٧١) ولكن هذا المنطق لا يقرّ الآنسة فتلاحظ انه لا تهذيب ولا تعليم مع الاحتفاظ بالحجاب وحبس النساء ، فيلزم اذن رفع ذاك الحاجز . (١

* * *

اما القسم الثالث فيتناول الادلة الدينية ويتوسّع فيها في البرهان عن نظرية المؤلفة . وهذه الادلة مستمدّة من المعتقدات الاسلامية ، وسنختصر ايجازنا لها لئلّا يؤول بنا الأمر الى مناظرة في ذلك . فنكتفي اذن بالقول ان المؤلفة تزعم ان آيات القرآن القائلة بتحجب النساء ، وبقائهنّ في المنزل ، لا تخصّ الّا نساء النبي (ص : ١٨٧) وان المفسّرين أخطأوا في تعميم تلك الآيات على المسلمات كافّة . وهي تؤكّد ايضاً انه ، في القرن الاول للاسلام ، لم يكن استعمال الحجاب عاماً بعد ؛ ولم يكن من فرق ، في العلاقات الاجتماعية ، بين الرجال والنساء (ص : ١٩٠) . واخيراً تنعى عليهم الوقوع في اغلاط كالتي تنسبها المؤلفة الى المفسرين ،

ترى من الواجب ان تؤلف لجنة لتفسير القرآن من اجلّة الفقهاء المصريين ، وعلماء الاجتماع والاخلاق ، وذوي الاختصاص في العلوم والفنون المتنوّعة ، يشتغل كل منهم ضمن دائرة اختصاصه . (ص : ٢١٦)

ويتنهي المطالع الى القسم الرابع ، وهو اطول الاقسام واوفرها طرافة .

---

١) في الصفحة ١٦٩ ، تذكر المؤلفة حادثة غاليله الشهير فتقول انه لمّا هُدّد بالحريق ، اقتحم النار ومات . ولا ندري من اي نبع استقت هذه الخرافة ؟

وفيه الردّ على بعض الكتابات الحديثة ضدّ السفور. ونحن نمرّ عليه بسرعة آخذين بعض المُثُل منه ، محيلين القرّاء الى مطالعته في الكتاب نفسه ، مؤكدين لهم انهم لا يضيعون وقتهم ، ولا يندمون اذا طالعوه.

تفتتح المؤلفة سلسلة ردودها بذكر معارضة لاحد قضاة الشرع سابقاً ، دون ان تذكر اسمه (ص : ٢٧٥) ، ثم تنتقل (ص : ٢٨٠) الى كتاب للشيخ سعيد البغدادي ، وهو يزعم ان النساء ، اذ ظهرنَ سافرات ، اوقعن الرجال في الكبائر . فتردّ عليه بقولها:

اذا كان يجب ستر ما يراه الانسان مما ليس قادراً عليه ، ولا صابراً منه ، فيجب ان يستر عن كل انسان كل ما يشتهيه ، وعن الفقراء كل ما عند الاغنياء ، من بيوت وملابس ، ومآكل ، واسباب الرفاهية على انواعها. (ص: ٢٨٢)

ويرى الشيخ نفسه ان لبس الحجاب يميز الإنسان عن سائر الحيوان . . . فتجيب :

قلت: اذن الاولى بسيدي المرشد ، ان يتحجب ويضع النقاب على وجهه ، مثل النساء ، ليمتاز عن سائر الحيوان ، فالرجل اجدر من المرأة بهذا الامتياز ، لان عقله كامل ، وعقل المرأة ناقص ، كما زعم حضرته في جوابه على السؤال الثاني في الرسالة المذكورة. وهكذا اقول ، لكل من يقول ان الحجاب للمرأة ليس بدليل على تخييرها ، انما هو دليل على احترام الرجل اياها ، اني اقول له: اذن الاولى بالرجل ان يحرز مثل هذا الدليل على احترام المرأة اياه ، فيحتجب ساتراً وجهه. والا فهو مراء فيما يقول و « إنَّ اللهَ حرَّمَ الجنَّةَ على كُلِّ مرَّاء ». (ص: ٢٨٥-٢٨٦)

وان الشيخ البغدادي الذي سمّى كتابه بهذا العنوان الجريء ، السيف البارق في عنق المارق ، يثير قريحة الآنسة نظيره فتفهمه ان الزمان قد سار بنا ، وتسأله :

ايجوز لنا بعد ، ان نستعمل « بارودة بنتيل » تجاه البراريد والقنابل والمدافع البعيدة المرمى ؟ وهل يجوز ان نستعمل السوق والجمال ، تجاه الدبابات والطيارات والسيارات المصفحة؟ ايجوز لنا ان نؤثر الجهل على العلم ، والظلم على العدل ، والباطل على الحق ، والاستبداد على الحرية ، والحجاب على النور؟ (ص: ٣٠١)

وهنا نكتفي بالاشارة الى ردّ محكم (ص : ٣٠٢) على احد شيوخ الازهر وهو من اعداء تعليم النساء.

واوفر منه طرافة ذاك الردّ على الشيخ محمد رحيم الطرابلسي القائل ان الدين الإسلامي يجبر المسلمين ان يتميّزوا عن غيرهم باللباس ، فيلزمهم مثلاً ان يحافظوا على العمامة ولا يتشبّهوا بغيرهم (ص: ٣٢٩) فتجاوبه المؤلفة قائلة :

يا سيدي الشيخ ، اذا كان الاشتراك في الملبس ممنوعاً ، سواء كان مقروناً بقصد التشبه والميل لدين صاحب الزيّ ، او لم يكن ، فلمَ اشتركنا معهم في كل ملابسهم ، واخذنا عنهم كل ما يلزم لمعيشتنا حتى الابرة والخيط ، والمدفة و « الشحّيط » ؟

لقد أجمدنا بعض ذوي العمائم يا سيدي الشيخ ، في التعصب الجامد ، والورع البارد ، حتى خدرت عقولنا ، وشلّت ايدينا ، وعجزنا عن صنع ما يلزمنا ، وجلبنا كل شيء من العالم الكافر الراقي ، ولبسناه او استعملناه ، ولم يبقَ شيء مما عندهم لم نشترك فيه ، الا البرنيطة او المظلة ، والمؤمنون احقّ منهم بها . وقد كانت عندنا قبل ان كانت عندهم ، ونحن احوج منهم اليها ، فالحرّ عندنا أشد من الحر عندهم . (ص: ٣٣٦)

وهنا تُوفّق الكاتبة الى ذكر كل ما حُرّم قديماً من الزنادقة على غير المسلمين ، والتي جمعها قدماء الفقهاء كابن عابدين ، ثم تقول :

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، ان يركب الخيل مطلقاً ، وان ركب حماراً لضرورة فيترل عنه عندما يمرّ بالمسلمين ، واوجب عليه التضييق ، والجاءه الى اضيق الطريق ، كل ذلك للاذلة والصغار على ما ذكر . وانظر اليوم ، انت يا سيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، الا ترى انه بعد نيله حرياته واقلاله من قيوده واغلاله ، لم يكتفِ بتسخير الارضين ، وسهولها ، وحزونها ، لمجلاته ، وسيّاراته ، ودبّاباته ، وبتسخير البحار لبواخره ، وغواصاته ، ومدرعاته ، بل سخر الافلاك الراسمة لطياراته ، وركب متن الجو ينظر الى الارضين من علٍ ، مسابقاً بالقطبين والاوقيانوس الشاسع الواسع ، الفاصل بين العالمين ؟

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، ان يسكن داراً عالية البناء لئلا يقف عند داره سائل ويدعو له بالمغفرة او يعامله في التضرع . وانظر اليوم انت يا سيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، وقد نال حريته ، وافلت من قيوده واغلاله ، الا ترى ان قصوره الشاهقة ، وقد يبلغ بعضها سبعين طبقة ، تناطح السحاب وقد تعلوه ؟ وهو لا ينظر السائل ليدعو له بالمغفرة ، او يعامله بالتضرّع ، انما ترفّع عن ذلك ، وهو يرسل الى ما وراء البحار ، والى كل الاقطار ، ملايينه وملياراته ، لاسعاف الفقير ، وشفاء المريض ، ونشر العلم ، وتثقيف العقل ، واسعاد البشر ؟

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، ان يستخدم العبيد والجواري استخداماً به . فتأمل انت يا سيدي الشيخ فيما فعل غير المسلم ، بعد نيل حرياته وافلاته من قيوده واغلاله . انه حرّر العبيد والجواري ، في الدنيا كلها جبراً ، بمعاهدات خاصة ، وبدلاً من ان يستعبد اخوته وأخواته من

بني الانسان ، ويسخرهم ، استعبد الطبيعة الجامدة ، مسخرًا اياها ، ومسخرًا قواها لارادته ، وخدمته ، وراحته ، ونعمه .

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، ان يلبس الثياب الفاخرة ، مثل الصوف المربع ، والجوخ الرفيع ، والابراد الرقيقة ، ولا زنار الابريسم لان ذلك جفاء في حقّ الاسلام ومكسرة لقلوبهم ، بل يلبس الكتيج ثوب العجز والذل ، مركبًا من خيوط الصوف والشعر الشخين .

وقد تناسى ابن عابدين على ما يظهر انه لما علّم القرآنُ نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم ان يستعيذ من مساوئ الاخلاق كان الحسد من جملة ما لقّنه الاستعاذة منه فقال تعالى (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . من شَرِّ مَا خَلَقَ . . . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) .

وانظر اليوم يا سيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، الا ترى انه قد حصر فيه صنع الاقمشة الفاخرة ، كما حصر فيه سائر الصناعات العامة عنوان العز والقدرة ؟ فهو الذي يرسل الينا من الاقمشة الفاخرة ما نلبس .

هل يرى ابن عابدين موافقًا لمكارم الاخلاق التي انا بعث نبينا صلى الله عليه وسلم لتتميمها ، ان نحسد غير المسلم ، على لبس الملابس الفاخرة ، وزنار الابريسم ، ونعد ذلك مكسرة لقلوبنا ، في حين ان غير المسلم ، يرسلها الينا من وراء البحار ، لنتزين بها ، دون ان يجول في فكره شيء من الحسد ؟ (ص : ٣٥٣-٣٥٥)

ثم تسرد الكاتبة الاحاديث الكثيرة التي ورد فيها ان الله «يحبّ الجمال والتجمّل ، ويبغض البؤس والتباؤس» . « فلماذا تُكلّف المرأة ان تكون بغيضة ، مكذّبة بنعمة الله » (ص : ٣٦١) وهي لا تخشى الدفاع عن البرنيطة وتقول :

وانك يا سيدي الشيخ ، تقاوم لبس البرنيطة ، وما هي الا مظلّة . وقد سئل الرضا رضي الله عنه ، عن رجل يلبس البرطلّة ، فقال : « قد كان ابو عبدالله جعفر الصادق رضي الله عنه ، يلبس مظلة يستظل بها من الشمس » (ص : ٣٦٢)

فكيف تلوم المسلم يا سيدي ، اذا استحسن مظلة قلبها يستظلّ بها من الشمس ، وقد لبس مثلها ابو عبدالله جعفر الصادق رضي الله عنه .

لبس المسلمون الطرابيش ، وما هي الا قلانس بوغانية الوضع ، تركها الاتراك بما غيروا فيها ، حتى صارت الى حالتها الحاضرة ، وهي جامدة على حال واحد صيفًا شتاء لا تتغير . إنهم في هذا الشرق ، جعلوا كل ملبس للانسان ، يتغير بحسب الفصول ، والحر والقر ، الا ملبس الرأس ، فانهم جعلوه جامدًا . وكأنهم اجدوه ، لأنه لُبسُ مواطن القول التي ارادوا واشاء ان يجمدوها . (ص : ٣٦٣)

وتقف الآنسة نظيره امام معارضة للشيخ الفلايني في كتاب «الدين الاسلامي واللورد كرومر» فتقول أن كتابه هذا من عمل الشباب، وقد يكون مؤلفه قال في العشرين سنة التي مضت على تأليفه، آراء جديدة عن دور المرأة في الحياة. اما الشيخ فانه يبدأ بمنح المرأة بعض الحقوق، ثم لا يلبث ان يسترجع كل ما منح فيقول بكل تشاؤم مستشهداً بقول غيره:

«ما دامت المرأة تضيع ثلاثة ارباع الوقت ان لم اقل تسعة اعشاره في الملبس والزينة، وتقضي معظم العشر الباقي في الكلام عن الاثنين، فهي لا يمكنها المطالبة بحق واحد من حقوق الرجل. ولو وكل امر تدبير هذا الكون الى النساء فقط لكان اليوم قفرا هذا ان بقي»!!

ولكنّ محمّداً «جعل المرأة ربة المنزل وسيدته».

وأنّى تكون ربةً لمنزل او سيدة فيه حقاً، وهي في عرف رجلها، لا يجوز لها ان تقرب من نافذة ذلك المنزل، او تطلع الى سطحه، او تخرج الى شرفته، او داره، بل يجب عليها ان تخدمه فيه، واقفةً امامه، كأمة بين يديه.

كيف تكون ربة لمنزل او سيدة فيه حقاً، وهي في عرف رجلها لا تزال في المنزل، كما قال السيد جميل بيهم، الّا من قبيل الغنية، يُتزوّج بها للخدمة والتناسل، ويترفّع الرجل سيدها عن مصاحبتها، ومؤاكلتها، ومجالستها، وجعلها بوجه لائق يتهيأ له بذلك فراش جديد؟

أهذه هي المساواة التي امر بها الدين؟ أهذا هو تنظيم شأنها الذي اوجبته الشريعة الاسلامية؟

ان المرأة لا تعارض احكام شرع الله، يا سيدي الشيخ، بل تعارض رأسها طاعة واحتراماً له، وانما تعارض ما يعاملها به الرجل خلافاً للدين، وللشرع الله، وللقانون البشر، ولنواميس الطبيعة، وللعدالة والمصلحة. (ص: ٢٠٨)

وينتهي الكتاب بان تسأل المؤلفة ما عساه يقول ابو حنيفة لو بُعث حيّاً... فتقول انه لو بُعث حيّاً لرأى في كتاب السفور ما يدفعه الى التفكير، فالموافقة على ما فيه من روح التحرّر الحقيقي. ونحن نعلم ان مذهب مذهب اصحاب الرأي، واذن فهو يرى من الواجب استعمال العقل في المسائل المتعلقة بآداب المجتمع.